السنة: الخامسة المجلد: 05 العدد: 01 ص ص: 133 - 157
ISSN 2543-375X EISSN 2676-1645

الخطاب الإلحادي في السينما الأمريكية من خلال فيلم Mother؛ دراسة تحليلية

The Atheistic Discourse in the American Cinema through film of "Mother", Analytical Study

صابر بقور[1]، جامعة بسكرة
مخبر التغير الاجتماعي والعلاقات العامة في الجزائر
beggoursaberrp@gmail.com
عبيدة صبطي، جامعة بسكرة
monasabti@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/10/31 **تاريخ القبول: 2019/11/22**

ملخص:

تروم هذه الدراسة الكشف عن الأيديولوجيا الكامنة في الخطاب الإلحادي للسينما الأمريكية من خلال فيلم Mother والنماذج الإدراكية التي يؤسسها في بناء هذا الخطاب، إذ ذاك تقعُ هذه الدراسة ضمن حقل البحوث الكيفية التي تستهدف فهم الظاهرة؛ حيث اعتمدنا فيها على منهج تحليل الخطاب، أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة تمثلت في أثر المرجعية التوراتية المحرفة على تكوين الخطاب الإلحادي للفيلم الأمريكي Mother؛ أين تضطلعُ مجموعة من الأيديولوجيات في تقاطعها السياقي على إعادة إنتاج هذا الخطاب والحفاظ على استمراريته، أما صورة الإله فلا تقف عند التجسيد والنزعة المادية والأنسنة ورفع القداسة عنه بل تتعدى ذلك إلى الشيطنة وإقران الذات الإلهية بالشر، تباعاً ينخرط الفيلم في الأيديولوجيا النسوية بإظهار الازدراء والتعنيف التي تتعرض له المرأة بسبب الأديان والسلطة التي تمنحها هذه الأخيرة للرجل للتحكم فيها، تحيل النسوية إلى سياق مقابل يتمثل في نقد النزعة الذكورية للإله من خلال تصوير علاقته وقربه الشديد من الذكر مقارنة بالأنثى والتلميح

[1]- المؤلف المراسل

إلى اختيار الأنبياء ذكورا بالتدليل المناقض عبر تجسيد النبوة في دور امرأة، وعليه يقوم الخطاب الإلحادي في فيلم Mother على ازدراء/ إسقاط الأديان، شيطنة الإله واعتباره مصدرا للشر؛ اعتمادا على الأيديولوجيا النسوية مقابل دحض النزعة الذكورية/ الأبوية.

الكلمات المفتاحية: الخطاب – الإلحاد – الأيديولوجيا – السينما الأمريكية – فيلم Mother.

Abstract:

This study aims to uncover the ideology of the atheistic discourse on the American cinema, in film "mother", also the cognitive models the film uses. Thus, this study goes within the field of research on how to understand this phenomenon as a target, we relied on discourse analysis methodology .

The important findings of the study were the impact of the distorted Biblical reference on the composition of the atheistic discourse of the American film "Mother", where a set of ideologies in their contextual intersection are based on reproducing and maintaining this discourse. While the image of god does not stop at the incarnation, humanization or taking away holiness from the god, but to demonization the god, consecutively the film engages in feminist ideology by demonstrating the violence women faces because of religions. Feminism refers to an opposite context which It is a critique of the masculine tendency of God, also pointing on the allusion to the choice of male prophets. By demonstrating the opposite using woman in the role of prophecy.

That's why the atheistic discourse in Mother is based on demonizing God.

Keywords: Discourse, Atheism, Ideology, American Cinema, Mother movie.

مقدمة:

مازال الدين يُشكل أحد القضايا الشائكة والمفاهيم المعقدة بالنسبة للعقل الإنساني، ولازالت العلاقة بين ثلاثية الإله والإنسان والطبيعة هاجساً تخطى حدود العلم والمعرفة إلى الفنون على اختلاف أنواعها مما يجسد نزعة إنسانية لا

متناهية لفهم هذه العلاقة والإجابة على هذا التساؤل المُلِح، في مُعتركِ الإجابة على هذا السؤال، عبرَ احتكاك العقل الإنساني بالدين، ظهر الخطابُ الإلحادي كنزعة متاخمة للأديان تقع على خط موازٍ لها بما يحقق دحضها والابتعاد عنها، بدأ الإلحاد سؤالا وشكاً محدثا بذلك تراكماً تاريخيا لسلسة من الاتجاهات والآراء، إلا أن تنامي الاعتماد على العلم والوثوق المطلق بنتائجه وتصاعد دور الآلة بعد الثورة الصناعية ثم انفجار التكنولوجيا والتقنية وتنامي النزعة المادية والاستهلاكية للحداثة، حول الخطاب الإلحادي من ضرب الشك الفردي إلى أيديولوجيا كبرى شديدة التنميط والاختزال.

يسوقنا الحديث عن التكنولوجيا والتقنية إلى السينما التي تعد أهم الوسائط الاتصالية والثقافية التي يمكن أن تنتشر من خلالها الأوعية الأيديولوجية ظلت السينما منذ ظهورها الوسيلة الأكثر قدرة على الاستحواذ على حواس الإنسان وعقله ووجدانه معا؛ أين ينزع المتلقي للسكون والهدوء مستسلماً بشكل تام لما يتعرضُ له، عبر الانتقال من عصر الصورة التماثلية إلى عصر الصورة الرقمية ثم الصورة المستحدثة عبر الكومبيوتر، ازدادت المسافة بين نقل السينما للواقع الاجتماعي وصناعة عوالم لا تمت للواقع الإنساني بصِلة، لتتأرجح بذلك الأجناس السينمائية بين الواقعية والخيالية؛ أين تتعدد الأساليب بين الدراما والميلودراما والتشويق والإثارة والتخويف.

لا يمكننا الحديث عن السينما في بعدها العالمي دون الوقوف عند السينما الأمريكية وتحديدا هوليوود مركز الصناعة السينمائية الأكبر في العالم؛ أين تتجلى مفاهيم الاكتساح والانتشار وضخامة الإنتاج؛ لقد تحولت هوليوود إلى ثقب أسود ابتلع الوجود بأكمله؛ بتناولها لكل المواضيع والوقائع حتى باتت عالماً موازيا لهذا الذي نعيشُ فيه، ولعل الترويج والدعوة إلى الإلحاد في السينما الأمريكية قد بات خطاً قاراً لكثرة الأفلام التي تعرض هذا الخطاب وسعيها المستمر لترسيخه والتأكيد عليه؛ لتتحول بذلك إلى ظاهرة تستوجب الدراسة والتحليل.

منذ عصر السينما الأمريكية الكلاسيكية إلى تلك المعاصرة؛ حرصت هذه الأخيرة على نشر المضامين الإلحادية من منطلقات وزوايا مختلفة؛ سواء من

خلال تشويه صورة الأنبياء والرسل أو من خلال تجسيد الأساطير الإغريقية التي تتناول تعدد الآلهة وصراعها فيما بينها أو مع البشر، أو من خلال الترويج لممارسة السحر وتحسين صورته أو من خلال تأليه الشيطان والدعوة لعبادته أو عبر تشويه صورة الإله على غرار فيلم الأم Mother؛ الذي نهدف إلى تحليله من خلال هذا البحث للكشف عن آليات بناء الخطاب الإلحادي على مستواه والسياقات الأيديولوجية التي ينبثق منها، إذ ذاك تنطلق هذه الدراسة من سؤال إشكالي رئيس مفادهُ: **ما هي الأيديولوجيا الكامنة في الخطاب الإلحادي للفيلم الأمريكي Mother، وما هي النماذج الإدراكية التي يُنتجها؟**

تقعُ هذه الدراسة ضمن نطاق البحوث الكيفية التحليلية التي تستهدف الفهم العميق للظاهرة والإحاطة بها في حدود عينة الدراسة، حيث اعتمدنا على منهج تحليل الخطاب؛ الذي يعرفه محمد شومان بأنه منهج الكشف عن الوظائف الفكرية ووظيفة تصوير العلاقات الاجتماعية والهويات الاجتماعية. (شومان، 2007، ص 37)، وبما أن أدوات الدراسة تمثل الأساس الإجرائي لكل بحث، حيث من شأنها أن تساعد على الحصول على العناصر المكونة للمادة/الظاهرة وبالتالي إمكانية ترتيبها وتصنيفها وتحليلها، اعتمدت هذه الدراسة على ثلاثة أدوات ضمن منهج تحليل الخطاب نجملها في أداة تحليل الأطروحة، أداة تحليل الحجاج وأداة تحليل السياق والأطر المرجعية.

أولا: مصطلحات ومفاهيم الدراسة

مفهوم الخطاب

لغة؛ جاء عن أبو الفضل ابن منظور في لسان العرب: الخطاب لغة خطب الخَطْبُ: الشَّأْنُ أَو الأَمْرُ، صَغُر أَو عَظُم؛ وقيل هو سَبَبُ الأمر، يقال: ما خَطْبُك؟ أَي ما أَمْرُكَ؟ وتقول: هذا خَطْبٌ جليلٌ، وخَطْبٌ يَسير. والخَطْبُ الأَمر الذي تَقَعَ فيه المخاطَبة، والشأْنُ والحالُ؛ ومنه قولهم: جَلَّ الخَطْبُ أَي عَظُم الأَمرُ والشأْن. (ابن منظور، 1996، ص115)

أما اصطلاحاً؛ فيتسمُ مفهوم الخطاب بالتشابك والتعقيد؛ ومردُّ ذلك تعدد مداخله الفلسفية المعرفية وحتى المنهجية؛ إذ ذاك يتعدد مفهوم الخطاب بتعدد

المدارس العربية والغربية واختلاف منطلقاتها في معالجته حيث تختلف المداخل بين الثقافة الأيديولوجيا، اللغة، السلطة وفيما يلي نورد التعريفين الآتيين:

يعرف محمد أركون الخطاب على أنه فعل من أفعال المعرفة وفي موضع المواجهة بين الخطاب التاريخي والخطاب التيولوجي يعرف الخطاب باعتباره كل تشكيلة للمعنى؛ وذلك طبقا للإكراهات والضرورات الخاصة بحالة معينة بمستوى معين من اللغة، ضبط انتخاب عناصر المعرفة التي يظهرها أو يبديها في كلامه الفكري التأملي كل ناطق أو مؤلف يمثل عضوا منخرطا في تاريخ محدد، الانتفاضات والحدوس والاحتجاجات وابتكارات الذات المنخرطة في تجربة وجودية فريدة من نوعها.(غضابنة، 2014، ص145).

وتعرفه ماريان جورجنسن ولويس.ج.فيليبس في المفهوم العام بأنه انتظام اللغة انطلاقا من مختلف النماذج التي تتبعها منطوقات الناس عندما يأخذون حيزا من مختلف مجالات الحياة الاجتماعية.(Jorgensen & Phillips, 2008p12).

إذ ذاك نستنتج أن الخطاب تداول اجتماعي للمعرفة التي تتحول إلى أيديولوجيا قوية تختزل الحقائق إلى حقيقة واحدة ومستويات الواقع إلى واقع واحد ويمكن أن نصف عملية التحوير والتعديل هذه بتشفير المعرفة، هذا التشفير يحول المعرفة إلى نماذج جاهزة تؤطر الوعي الإنساني. تصبح هذه النماذج أشكال زائفة عن الوعي كما أنها قوة ناعمة وإكراه طوعي يعتمد على الإقناع التراكمي، وعليه تمرر هذه النماذج الإدراكية عبر مشاريع تقسم وتفتت الواقع عبر إستراتيجيات محددة بمقاصد وأهداف معينة يمكن إجمالها في الهيمنة والسيطرة.

- **مفهوم الإلحاد**

لغة؛ لَحَدَ: اللحد واللحد: الشق الذي يكون في جانب القبر موضع الميت والجمع ألحاد ولحود والملحود ولحد في الدين يلحد وألحد مال وعدل وقيل لحد مال وجار. ابن السكيت: الملحد العادل عن الحق المدخل فيه ما ليس فيه، يقال قد ألحد في الدين ولحد أي حاد عنه. (ابن منظور، ص 1025).

أما اصطلاحاً؛ فالإلحاد في ظاهره إقرار بعدم وجود الله؛ وثمة ملاحدة يدعمون هذا الزعم بالبراهين، بيد أن براهينهم عادة ما تكون موجهة ضد

المفهوم المسيحي للإله، ولا تكاد تتعلق بأية آلهة ممكنة أخرى، لذا يفضل فهم قطاع كبير من الإلحادية الغربية بوصفه تعليماً يقرُّ أن إله المسيح لا وجودَ لهُ. (هوندرتش، 2005، ص 90).

لكن الإلحاد يتجه لإنكار وجود الإله تارة وإنكار علمه وعنايته أو قدرته وإرادته[2]، ويكفي أن ينكر المرء أصلا من أصول الدين أو اعتقاداً من الاعتقادات المألوفة أو رأياً من الآراء الشائعة حتى يتهم بالإلحاد؛ وفي التاريخ أمثلة كثيرة تدل على أن العلماء الذين يأتون بالغريب وغير المألوف من الآراء، يمتهنون ويتهمون بالكفر والإلحاد والزندقة؛ فكلما زاد التعصب كثر عدد الملحدين في نظر الناس والعكس صحيح. (صليبا، 1982، ص ص 119 120).

إن الإلحاد بالمعنى الغربي يتضمن عدة مقاصد؛ هناك أولا التمييز بين الإلحاد العملي والإلحاد النظري، الأول هو موقف من يتصرف كما لو لم يكن هناك إله؛ فهو يقر بوجود إله ولكنه ينكر الله في سلوكه في الحياة، أما الإلحاد النظري فهو نوعان: المُطلق؛ لا يقر بوجود إله ولا بوجود أمور إلهية إما عن جهل بالله؛ مثل "المتوحش" عند جان جاك روسو، أو لعدم اكتراث بالإله؛ مثل موقف هيدجر وبنديتو وكروتشه، والموقف الإيجابي هو الذي ينكر وجود الإله لأسباب يتذرع بها؛ مثل موقف الماديين أمثال أبيقور ولامتري وفيورباخ وماركس ونيتشه، وهناك الإلحاد النظري النسبي الذي لا يقر بوجود الله ولكنه يقر بوجود أمور إلهية؛ على غرار المذهب الوضعي وموقف سبينوزا في بعض التأويلات ومذهب القائلين بوحدة الوجود ومذهب المؤلهة الذين يقعان على حافة الإلحاد والإيمان بالله.(بدوي، 1984، ص 219).

بناءً على ذلك؛ لا يبدو أن للإلحاد مفهوم واحد، بل تشير الفروق الواردة أعلاه إلى أن الفكر الإلحادي مستويات وأقسام وهو ما ينعكس في عدد من المصطلحات المتاخمة والمقاربة للإلحاد من خلال توصيفها لعلاقة الفرد بالدين والإله؛ على غرار اللاأدرية الذي يتخذ أتباعه موقفا محايدا حيال الإله لا يقرون

[2] - وهو السياق الذي يندرج فيه فيلم Mother الذي سنقوم بتحليله.

فيه ولا ينفون وجوده والعلمانية التي تدعو إلى فصل الدين عن الدولة والاحتكام إلى العلوم والقانون الوضعي في تسيير شؤون المجتمع والربوبية التي يعتقد معتقيها بوجود الإله ولكنهم ينكرون مسألة اتصاله بالبشر عبر الأديان، ويصطلح على هذا التوجه أيضا باللادينية، وأصحاب توجه معاداة الدين؛ وهم الملحدون الذين يتخذون موقفا عدائيا حيال الإله والدين والمتدينين بشكل عام.

- **مفهوم السينما**

لُغة؛ جاء في قاموس المعاني أن السينما هي فنّ إنتاج وإخراج الأفلام التي تُعرض على الشَّاشة البيضاء أمام النَّاظرين ويطلق عليه الفنّ السَّابع. أما عِلْم السِّينما فهو ذلك العلم الذي يدرس تأثير السِّينما في الحقل الاجتماعيّ أو الأخلاقيّ ...، وقيل هو علم يبحث في السِّينما باعتبارها ظاهرة فنِّيَّة أو اجتماعيَّة.(https://bit.ly/32OKCvv).

أما اصطلاحاً؛ فعرفها ريتشيوتو كانودو؛ الذي يعتبر أول من أطلق اصطلاح الفن السّابع على السينما على أنها فن تقليدي تندمج فيه الفنون التشكيلية والفنون الإيقاعية والعلم والفن؛ أي أنها فن الحياة الشّامل المعبّر عن الروح والجسد، وأن الصدق الأسمى للسينما يكمن في قدرتها على التعبير على النفس وليس تقديم الواقع.(الجبار، 2016، ص ص 75 76).

وفيما يخص رائد سيميوطيقا السينما كريستيان ماتز فيرى أن السينما تمثل مجمل كل الشفرات مع شفراتها الفرعية التي يمكنها أن تبثَّ دلالة في مواد تعبير الوسط الفنّي.(دادلي، 1987، ص 217).

كما تعدُّ السينما نظام لا زمن لهُ، حيث أنها حقل من الأنظمة تؤثّثه ترسانة من التقنيات التي لا تلبث تتجدد، والفيلم السينمائي خطاب آني؛ لغة ناجزة عبر كلام فردي أو واقعة كلاميّة، إنما هو (أي الفيلم) ملفوظ أي قول رهين بمتكلم واحد هو المخرج أو بعدة متكلمين كالشخوص مثلا، ورهين أيضا بسياق ثقافي، جمالي وأيديولوجي.(بن جيلاني، 2010، ص 288).

من خلال مجمل التعريفات السابقة؛ تظهر السينما كمفهوم مركب ينسحب على جميع أشكال الحياة الاجتماعية فكرا وممارسة، السينما فعلٌ

سياسي وثقافي واقتصادي واجتماعي وتكنولوجي في آن واحد بحيث لا تتوقف عن التأثير والتأثر بمخرجات هذه السياقات، تصبح السينما بذلك وسيلة الاتصال الجماهيري الأكثر قدرة على تشكيل الوعي والتلاعب به من خلال سلطتها اللامحدودة على الواقع والخيال، الحقيقة والأحلام والأوهام عبر حشدها لأهم حاستين عند الإنسان السمع والبصر عبر الصورة والصوت في آن واحد؛ وبالتالي سيطرتها على إدراكه وفهمه للأشياء.

ثانيا: الأطروحة الخطابية لفيلم Mother

- **ملخص الفيلم**

فيلم Mother بمعنى "أُم"؛ فيلم أمريكي درامي من إنتاج شركتي ProtozoaPictures وParamount Pictures، أنتج سنة 2017، قام بتأليفه وإخراجه الأمريكي دارين أرونوفسكي، بلغت نسبة إيراداته أكثر من 44 مليون دولار (https://bit.ly/2JrqtUL)، كما تحصل على تقييم 75 بالمائة على قاعدة بيانات الأفلام على الإنترنت (IMDB) في حين بلغت المراجعات المتعلقة به حسب ذات المنصة 1811 مراجعة و523 نقداً. (https://imdb.to/32SjvQa).

يتناولُ الفيلم اضطراب حياة شاعر وزوجته بعد قدوم عائلة غريبة إلى بيتهما، تتوالى الأحداث ليصبح البيت ساحة لمعركة لا تنتهي بين الناس المتوافدين عليه لينتهي الأمر بمقتل ابن الزوجين وانتحار الأم. يرمز الشاعر للإله أما القصائد التي يكتبها فهي الأديان، ترمز الأم للطبيعة/ الإنسان، أما الرجل والمرأة الغريبين الذين قدما إلى البيت هما آدم وحواء، يرمز الأخوين لقابيل وهابيل وحادثة قتل الأخ لأخيه وأول جريمة في تاريخ البشرية، أما ابن الشاعر والأم الذي يُقتل فيرمز للنبي عيسى.

- **الأطروحة الخطابية وقضاياها ومقولاتها**

إن استخراج الأطروحة الخطابية للفيلم والقضايا والمقولات الفرعية التي تنبثق منها إضافة إلى تفكيك القوى الفاعلة والبنية الحجاجية يستدعي كتابة سيناريو الفيلم كاملا وتقطيعه زمنيا حسب عدد المشاهد للتمكن من معرفة الوقت الذي تستغرقه كل قضية ومقولة إلى جانب الصفات والأدوار التي

تنخرط فيها الشخصيات وعدد اللقطات التي تظهر فيها كل شخصية. إذ ذاك قمنا بكتابة سيناريو فيلم Mother كاملا لنتمكن من تحليله.

يُدافِع فيلم Motherعن أطروحة أساسية تتمثل في تصوير علاقة الإله بالإنسان ابن الطبيعة؛ يختار صناع الفيلم شكلا محددا لهذه العلاقة أين يصبح الإله معذِّبا للإنسان ومسبِّبا مباشرا لكل آلامه من خلال الدين الذي يستمر في جلب الخراب للعالم وإذكاء الصراع بين البشر.

يمكن أن نلخص أطروحة الفيلم من خلال القضايا والمقولات التي تشملها في الجدول الآتي:

القضايا		المقولات		المدة الزمنية
القضية الأولى:	قتل قابيل لهابيل	1	تأسيس المكان والشخوص	من 00.00.42 إلى 00.04.47
		2	وصول آدم وحواء	من 00.04.74 إلى 00.24.59
		3	طرد آدم وحواء من الجنة	من 00.24.59 إلى 00.35.23
		4	قتل قابيل لهابيل	من 00.35.24 إلى 00.40.11
		5	الألم صوت الإنسانية	من 00.40.12 إلى 00.53.43
		6	تعلق الناس بالإله	من 00.53.43 إلى 01.05.33
القضية الثانية:	الدين سبب خراب العالم	1	مضاجعة الإله للطبيعة	من 01.05.33 إلى 01.10.20
		2	كتابة الإله نص الدين	من 01.10.20 إلى 01.19.08
		3	انتشار الدين	من 01.19.09 إلى 01.25.21
		4	صراع البشر بسبب الدين	من 01.25.22 إلى 01.37.25
		5	ولادة النبي عيسى	من 01.37.26 إلى

				01.45.51
		6	قتل النبي عيسى	من 01.45.52 إلى 01.48.20
القضية الثالثة:	احتراق الطبيعة وهوية الإله	1	معاناة الطبيعة واحتراقها	من 01.48.20 إلى 01.52.15
		2	هوية الإله	من 01.52.16 إلى 01.55.46
		3	البداية الجديدة	من 01.55.47 إلى 01.56.21

الجدول رقم (01): يوضح قضايا ومقولات أطروحة فيلم Mother.

المصدر: الباحث

ثالثا: البنية الحجاجية في فيلم Mother

تُعضد الأطروحة الخطابية للفيلم بمجموعة من الحجج التي انقسمت بين استمالات عقلية وعاطفية وأخرى تقوم على التخويف، توزعت هذه الحجج في الخطاب الفيلمي لسانيا وبصريا ويمكن أن نفصل هذه الحجج فيما يأتي:

الاستمالات الحجاجية العقلية: يحتوي الفيلم على أربعة حجج منطقية تخاطب عقل المتلقي كما يأتي:

- **وجود حياة سابقة على الحياة التي نعيشها:**

إن وجود حياة سابقة لهذه التي نعيش يسوقنا للتساؤل لماذا انتهت تلك الحياة؟ ولماذا بدأت حياة أخرى؟، يبرهن الفيلم من خلال هذه الحجة على فشل الإله في مشروع بعث السلام والتعايش على الأرض التي استخلف الإنسان عليها من خلال الصراعات والدماء التي لا تنتهي بين البشر منذ قتل قابيل لهابيل، وبما أن بناء شخصية الإله في الفيلم التي تظهره مجنون وفاقد للعقل والمنطق فهو يعيد الكرة في كل مرة تفشل التجربة ليتكرر الفشل من جديد وينتهي بفاجعة تأتي على الكائنات برُمتها.

تظهر هذه الحجة لسانيا في حديث الأب/ الإله إلى آدم عندما يقول له:

"عندما كنت أصغر سناً، فقدت كل أغراضي في حريق يصعب تخيل ما وقع، خسارة كل شيء؛ ذكرياتك وأعمالك وحتى فرشاة أسنانك القذرة، لم

أعرف إن كان بوسعي إبداع أي شيء مجددا حتى وجدت هذه بين رماد الحريق، أليس هذا مذهلا؟ أمدتني بالقوة لأبدأ من جديد وبعدها قابلتها...أنتِ (الأم) وبثت الحياة مجددا في كل غرفة، ردت الروح في كل شيء حتى أصغر تفصيلة".

إن عرض لقطات للأم وهي تقرأ مخطوط القصيدة الذي يرمز إلى النص الإلهي المقدس لم يأتي اعتباطا ولا جزافاً، بل يحتوي على إشارة واضحة إلى أن وجود حياة سابقة لهذه الحياة التي نعيش قد ورد في الكتب السماوية، وهو ما يعطي إسنادًا قويا لهذه الحجة، فعلى سبيل المثال جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" (القرآن الكريم، البقرة، الآية 30)، فكيف علمت الملائكة بأن الخليفة الذي خلقه الله سيفسد ويسفك الدماء في الأرض، وعلى الرغم من الاجتهادات الكثيرة لتفسير هذه الآية لمعرفة المخلوقات التي كانت تسكن الأرض قبل الإنسان وقامت بهذه التصرفات التي ذكرتها الملائكة إلا أن الأمر بقي غيبياً ومن أمثلة التفاسير المذكورة ما ورد على لسان على لسان ابن عثيمين يرجِّحُ أنهم خليفة لمن سبقهم، وأنه كان على الأرض مخلوقات قبل ذلك تسفك الدماء وتفسد فيها، فسألت الملائكة ربها عزّ وجلّ " أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ" كما فعل من قبلهم.(المُنجد، https://bit.ly/31N3IRC)

- **العدالة الإلهية:**

يُظهر الفيلم الأب/ الإله عاجزا عن مساعدة الفقراء رغم حاجتهم إليه ومناجاتهم إياه، في إحالة واضحة إلى أن هذا الإله غير قادر على تغيير وضع البشر أو التحكم في شؤونهم، وهو ما يبرزه المشهد الثامن والثلاثون من الفيلم عندما تقول "عجوز فقيرة للأب/ الإله: نحتاج إلى المال يجب أن نأكل أرجوك، ليرد عليها قائلا: لا أستطيع آسف لا يمكنني ليصرخ في وجهه شاب فقير آخر: ماذا تعني بأنك لا تستطيع، فيكتفي الأب بالرد: لن أنساكم".

يسوق الفيلم المتلقي من خلال هذه الحجة إلى سؤال العدالة الإلهية في مفهومها الضيق والواسع فلماذا الفقراء يعانون والأغنياء يتنعمون ولماذا يحتاج

الإنسان لإنسان مثله ليقدم له يد المساعدة رغم القدرة الإلهية، إن هذه التساؤلات تزداد أكثر وتتكاثر في ذهن المتلقي وهو الهدف الذي يريد صانع الفيلم بلوغه، كما تجدر الإشارة إلى أن هذا السؤال محط جدل كبير ليس فقط وفقا لطرح الفيلم بل في عديد من المقالات والتحليلات مما يجعله يركن إلى عمق الذات الإنسانية وتساؤلاتها الملحة.

- **الصراع البشري:**

يعدُّ غياب العدالة مصدر الصراع بين البشر في الفيلم؛ وهي الحجة التي تتأسس لغويا وبصريا بشكل جلي، فقتل قابيل لهابيل الذي كان بسبب كتابة وديعة بكل أملاك آدم لهابيل وأمه في إحالة للتمييز الأب/ الإله بين الأخوين في قبول قربان أحدهما على الآخر بعد خلافهما وبالتالي كُره وبغض قابيل لأخيه هابيل؛ الأمر الذي أدى إلى وقوع أول جريمة على الأرض التي يرى فيها صانع الفيلم أصل كل الجرائم والدماء التي تُهدر على الأرض، خصوصا أن قابيل قد فرَّ بعدما قتل أخاه ولم يظهر الفيلم أنه قد عاد أو تم العثور إليه في إشارة واضحة لبداية انقسام البشر بعد هذه الحادثة. كما تتأكد قضية اعتبار حادثة قتل قابيل لهابيل كأصل للانقسام والصراع بين البشر على المستوى البصري في مجموعة من اللقطات المتتالية من بداية الفيلم إلى نهايته التي تركز على أثر دماء هابيل في المنزل التي لم تختف وتعاود الظهور في كل مرة إلى جانب انتشار تلك الدماء في كل أرجاء المنزل بعد الحادثة في إحالة لاستمرار القتل والدم على الأرض.

يستمر التركيز على الصراع البشري في الفيلم بعرض صور الحروب والدماء والأشلاء المترامية، التي يردها كاتب ومخرج العمل Darren Aronovsky إلى الدين، فبعد كتابة الأب/ الإله للقصيدة / النص المقدس وبداية توافد الحشود على المنزل لرؤيته يزداد إعجابهم وتعلقهم به كما يزداد تطبيقهم لتعاليم النص المقدس في ذات الوقت إلى أن يتحول المنزل إلى ساحة حرب ودماء بين بشر يقتلون بعضهم البعض. يؤكد Darren Aronovsky في كل مرة على عدم قدرة الإله على التدخل وإيقاف هذه الحروب ولا إنقاذ الأبرياء من الموت الذي تخلفه هذه الصراعات.

- **عدم الاكتفاء:**

من بين الحجج التي يعتمد عليها كاتب ومخرج Darren Aronofsky لإثبات أطروحته بشأن الإله، بأنه لا يكتفي أبداً، فرغم حب الإنسان له (للإله) يستمر في تعذيبه وجلب المعاناة له ورغم ما سببته الأديان من حروب ونزاعات وموت يستمر جودها، إن هذا الإدعاء/ الحجة يخفي طرحاً مبطنا مفاده لماذا يخلق الله البشر مع علمه بأنه سيفسد ويسفك الدماء ولماذا هذه الحروب والصراعات والفقر والجوع والمعاناة المستمرة. تظهر هذه الحجة عندما تسأل الأم الأب/ الإله في المشهد التاسع والثلاثون: " أنظر إلي أنا على وشك إنجاب طفلنا؛ لماذا لا يكفيك هذا؟" هذا السؤال ترميز لسؤال آخر مفاده لماذا لا يكتفي الإله بكل الحب والإذعان الذي يقدمه له البشر لتستمر معاناتهم بهذا الشكل.

- **الاستمالات الحجاجية العاطفية؛ الألم والمعاناة:**

يدافع كاتب ومخرج الفيلم Arnonfsky Darren عن أطروحته بشحنها باستمالة عاطفية تستهدف التأثير الوجداني في المتلقي لاستقطابه نحوها (الأطروحة) وترسيخها في ذهنه، تتمثل هذه الاستمالة في إظهار ألم ومعاناة البشر وفي مقدمتهم الأم/ الطبيعة التي تمثل الإنسان كما سبق وأن ذكرنا. يتم التركيز بشكل واضح إظهار الألم والمعاناة منذ بداية الفيلم؛ ألم الموت وفقدان شخص نحبه على غرار حزن آدم وحواء على مقتل ابنهما هابيل، وحزن الأم/ الطبيعة على مقتل ابنها (الذي يرمز إلى النبي عيسى)، معاناة الفقر، معاناة المرض، معاناة الحروب والنزاعات والصراعات، لقد رمز كاتب ومخرج الفيلم الألم في شكل قلب يحترق ببطء إلى أن يحترق بالكامل في النهاية وهو قلب الإنسان والإنسانية الذي تستشعره الأم في جدران المنزل في كل مرة تحدث فيها مأساة.

- **استمالة التخويف:**

يُعدُّ التخويف أحد الأساليب الحجاجية المهمة التي تستخدم لتحقيق الإقناع بالرسائل التي ينتجها المرسل، كما أن كاتب ومخرج الفيلم Darren Aronofsky تعمد تعديد الآليات الحجاجية بين المنطقية والعاطفية والتخويف

ليحقق أقصى درجات الإقناع بأطروحته الفيلمية، يتخذ التخويف من الإله منحى تصاعديا في الفيلم من خلال ارتفاع مشاهد العنف؛ التي تُرجع دائما إلى تصرفات الإله الذي يوصف بالمجنون من خلال التناقض واللامنطق الذي يحكم أفكاره وأفعاله .

كما ينتهي الفيلم بمشهد مخيف عندما يقوم الأب/ الإله بانتزاع قلب الأم/ الطبيعة وهي تحتضر وتحويله إلى كريستالة لامعة ليحتفظ بها في بيته الجديد مع بداية الحياة والزمن الجديدين في إحالة إلى تلذذ واستمتاع الأب/ الإله بتعذيب قلب الإنسان وإحراقه معاناةً وألماً، تحول القلب المحترق إلى كريستالة تعجب الأب/الإله لتصبح عنده شيئا ثمينا يعكس إعجاب الأب/ الإله بمعاناة الإنسان وآلامه الذين يعتبرهما صوت الإنسانية وجوهرها.

يترجم Darren Aronofsky من خلال هذا الطرح، حالة نفسية إنسانية عميقة حول الألم والمعاناة، ففي التعبير المتداول في كل اللغات كثيرا ما يعبر الناس عن ألامهم وحزنهم ومعاناتهم الشديدة بجملة "قلبي يحترق" إنها حالة توصف بالاحتراق النفسي، الذي جسده كاتب ومخرج الفيلم في المستويات التي سبق ذكرها، ولأن المعاناة تقترن بالرفض عند الإنسان الذي يسعى بكل الوسائل للتعبير عنه ونقل هذا الرفض كتجربة إلى الأخر؛ وهو ما يتجسد في الرؤية الإخراجية لـ Darren Aronofsky الذي يرفض معاناة الإنسان؛ التي يرى في الإله السبب الأول والأخير لها.

سادساً: السياق الأيديولوجي للخطاب الإلحادي في فيلم Mother

إن الحديث عن سياق الخطاب يقودنا إلى الأيديولوجيات والأفكار الكبرى التي تنبثق منها أطروحته الأساسية والحجج التي تؤسسها، وبالتالي يصبح الكشف عن هذه الأيديولوجيات أمرا أساسيا ومهماً؛ حيث تشكل مركزا للخطاب والمرجعية الأساسية لصناع الفيلم. في فيلم Mother ينبثق الخطاب الإلحادي داخل الفيلم من ثلاث أطروحات أيديولوجية تتوالى تباعاً؛ بحيث تقود كل فكرة إلى الأخرى في تماسك منطقي يرافق تسلسل الأحداث، تتمثل هذه الأيديولوجيات المبطنة والمتضمنة في الخطاب: شيطنة الإله، المرجعية النسوية ونقد النزعة الذكورية.

اقتران الذات الإلهية بالشيطان

تتفق كل الشرائع السماوية على أن الله مصدر الخير والشيطان مصدر الشر، في قلبٍ وتحوير واضح لهذا الطرح القيمي يسعى فيلم Mother إلى إثبات العكس من خلال شيطنة الذات الإلهية واقرانها بالشر الذي يتسبب في كل معاناة الناس وآلامهم؛ كما تم توضيحه في أطروحة الفيلم التي تم تفكيكها والحجج التي تنبني عليها. بدءً من الدقيقة 50 في الفيلم تظهر الأم/ الطبيعة وهي تلمح صورة الأب/ الإله التي كان يحتفظ بها آدم في حقيبة أغراضه وقد تم تمزيقها وتشويهها ورسم قرنين على الرأس في إحالة رمزية إلى الشيطان، وهو الفعل الذي قام به قابيل بعد عودته للبيت عندما غادر الجميع البيت بعد حادثة قتل هابيل ليخاطب الأم/ الطبيعة في المشهد السابع عشر قائلا : "تركوك وحدك تماما، هل تفهمين؟"، إن المعنى المستتر في هذا الجملة (حسب الرؤية الفيلمية) مفاده أن الإله قد تخلى عن الإنسان بعد أن تسبب له كل هذه المعاناة والألم؛ إنه المسكوت عنه في الفيلم (le non dit) والذي يبذل كاتب العمل ومخرجه قصار جهده لتبليغه للمتلقي.

إن فكرة وصف الإله بالشيطان؛ فكرة يهودية موجودة في التلمود الذي كتبه اليهود والتي انتشرت بقوة في كل عقائدهم على غرار الصوفية اليهودية أو ما يعرف بالكابالا وكذا في جماعاتهم السرية المتطرفة على غرار المحافل الماسونية، ويستندون في ذلك أن الإله حرم على آدم وحواء الأكل من شجرة المعرفة/ الخلد لأن الذي يملك المعرفة الكاملة (معرفة كل شيء على غرار الإله) سيكون خالدا بالضرورة (وبالتالي إله) وأن الشيطان لم يغويهما أو يوسوس لهما بل ساعدهما على معرفة الحقيقة التي دفعا ثمنها بطردهما من الجنة وبداية المعاناة والألم التي يعيشها البشر منذ ذلك الوقت؛ ما يعني أن الإله هو المضلل وإبليس هو المنقذ (حسبَ هذا المعتقد المضلل)، ومن هنا أصبح يطلق على الشيطان اسم لوسيفرLucifer الذي يعني حامل النور والضياء؛ أي المعرفة وتبعته الجماعة المعروفة بالنورانيين أو المتنورين بمعنى العارفين، وحتى عندما خرجت أوروبا من عصر الجهل والتخلف الذي سمي عصر الظلام نظرا لارتباطه

بالدين والكنيسة أطلق على المرحلة التي بعدها عصر النور أي عصر العلم والمعرفة.

ينبعث هذا الكفر بالله من عقدة نفسية تاريخية ضاربة في عمق الوجود اليهودي، فاليهود رفضوا كل الآلام والمعاناة المرتبطة بالعقوبات المادية والمعنوية التي سلطها الله عليهم بسبب كفرهم وفسادهم وتحديهم له على غرار مسخهم قرودا (قصة أصحاب السبت) والتيه في صحراء مصر أربعون عاما ومسألة أمر الله لهم بقتل بعضهم بعضا تكفيرا لعبادتهم للعجل[3] وحرمانهم من دخول الأرض المقدسة (فلسطين) وتشردهم في بلدان العالم، لقد تحولت هذه العقدة إلى آلية دفاع وجودية بالنسبة لليهود من خلال سعيهم المتواصل لإظهار تعرضهم للاضطهاد في التاريخ سواء من خلال وقائع تاريخية حقيقية كحادثة السبي البابلي لليهود أو وقائع مفتعلة مهترئة ومشكوك فيها تاريخيا على غرار واقعة المحرقة النازية لليهود، يزداد هذا الرفض حدة وشدة على اعتبار أن اليهود يرون أنهم شعب الله المختار وأحسن ما خلق الله بل وأنهم أبناء الله وأحباؤه فكيف يفعل بهم هذا.

هذه النزعة المادية التي تطبع الشخصية اليهودية إلى جانب رفضهم للعقاب الإلهي المتخم بالألم والمعاناة جعلهم في موضع المتحدي والمنتقم من الإله عبر شيطنته الكاملة والسعي لرفع القداسة والألوهية عنه في التلمود وفي التحريفات التي طالت التوراة وفي الصوفية/ الباطنية اليهودية وفي كل فلسفاتهم وأفكارهم وهو ما انعكس بشكل واضح على الخطاب الإلحادي وصورة الإله في السينما الأمريكية من خلال فيلم Mother، إن هذا التحدي

(3) - بعض المصادر التاريخية الإسلامية تنفي ذلك، وتقول أن الله تاب عليهم وعدل عن أمره بقتل اليهود بعضهم البعض وهو ما يتجلى في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: 54]، ففي قوله تعالى "فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم"، تدل على أن الله رحمهم وعدل عن الأمر

الذي يطبع توجهاتهم وفساد عقيدتهم يمتد ليتجلى في أسطورة مصارعة النبي يعقوب لله والتغلب عليه وهو ما يتناوله سفر التكوين في العهد القديم (التوراة).

يتضح هذا الطرح ويتأتى بشكل أكثر بروزا من خلال أغنية جينيريك نهاية الفيلم التي جاء فيها الآتي: "لماذا تستمر الشمس بالإشراق؟ لماذا تتسابق موجات البحر إلى الشاطئ؟ ألا يعرفون أن نهاية العالم قد تكون قد حلت إن توقفت عن حبي؟ لماذا تستمر الطيور بالغناء؟ لماذا تتلألأ النجوم فوقنا؟ ألا يعرفون أن نهاية العالم قد حلت، انتهى عندما خسرتُ حبك، أستيقظ صباحا وأتساءل لماذا لا يزال كل شيء على حاله؟ ولا يمكنني أن أفهم، لا يمكنني مطلقا أن أفهم، كيف تستمر الحياة كما تستمر؟ كيف يستمر قلبي بالنبض؟ لماذا تبكي عيناي هاتان؟ ألا يعرفون أن نهاية العالم قد حلت، انتهى لما قُلتَ وداعا، لماذا يستمر قلبي بالنبض؟ ولماذا تبكي عيناي هاتان؟ ألا يعرفون أن نهاية العالم قد حلت، انتهى عندما قلت الوداع".

يؤكد هذا المقطع أن نهاية العالم قد حلت فور بدايته؛ إنها النهاية التي انطلقت عندما طرد آدم وحواء من الجنة وما تعيشه سلالتهم اليوم من البشر صيرورة لا متناهية من العذاب والألم والمعاناة وسط الموت والحرب والجوع وغيرها من الوقائع التي تستمر دون توقف في تعذيب الإنسان. كما يرتكز هذا المقطع الختامي للفيلم على أربعة أسباب أساسية للمعاناة والآلام التي ألمت بالبشرية؛ جاءت تباعاً في العبارات التالية: "نهاية العالم قد حلت"، "توقفت عن حبي"، "خسرت حبك"، "قلت الوداع"، فعندما ودع الإله آدم وحواء بطردهما من الجنة وتخلى عن حبهما بسبب المعصية التي ارتكباها حلت نهاية العالم بعدما غرق البشر في سلسلة لا متناهية من المآسي، هذه الأخيرة التي يحاول كاتب العمل ومخرجه Darren Aronovsky تبريرها على أنها شر محتوم لا ينبغي أن يصدر من إله رحيم لتصبح مزاعمه بشيطنته أمرا منطقيا.

المرجعية النسوية لفيلم Mother

بدءً من عنوان الفيلمMother؛ أي الأم وبالتالي الأنثى والمرأة، يُبطن العمل توجها نِسويا واضح tendance féministe، كما يعد ازدراء الأديان ورفضها مبعث الأيديولوجيا النسوية[4] Féminisme ؛ حيث تطالب النساء وحتى الرجال المتبنين لهذا النهج بالمساواة بين الرجل والمرأة وكذا رفض التمييز والامتيازات التي تمنحها الأديان للرجل على حساب المرأة وفي مقدمتها سطوته وقوامته عليها، فضلا عن معاناة النساء في الغرب من ارتباطهن بخطيئة الإغواء والطرد من الجنة كما ورد في التوراة والإنجيل ثم انتشار هذه الفكرة في العالم وتأثر شبه كلي للنساء بها حتى في المجتمعات الإسلامية التي تعتنق ديانة لم تأتي بفكرة خطيئة وغواية حواء لآدم بل وسوسة الشيطان لكلاهما معا[5]، وهو ما انعكس سلبا على صورة النساء مما جعلهن محل ازدراء وتحقير لسنوات قبل قيام الثورة الفرنسية لتظهر بعدها الأيديولوجيا النسوية التي تسعى لرد الاعتبار للمرأة بتحريرها من التصور الشيطاني الذي وضعتها فيه الأديان.

يظهر الفيلم الازدراء والتحقير الذي تتعرض له المرأة من خلال إبراز العنف اللفظي والجسدي الذي تتعرض له من قبل الرجل، ففي المشهد الرابع والعشرين من الفيلم تتعرض الأم/ الطبيعة للتحرش من قبل أن الرجال الوافدين وعندما ترفض مرافقته يصفها "بالوقحة والساقطة " في إشارة للخطيئة التي اقترفتها ومازال يدفع البشر ثمنها. يتحول هذا العنف اللفظي إلى عنف جسدي بعد نشر الإله/ الأب لمخطوط الديانة وتوافد الناس عليه حيث يظهر في أكثر من مشهد تعرض نساء للتعنيف من قبل الرجال فضلا عن احتجازهن في سجن خلف

---

(4) - متداول في المقابلات الصحفية والتلفزيونية لبطلة فيلم Mother جينيفر لورانس تعبيرها عن توجهها النسوي ودفاعها عن حقوق المرأة والنضال من أجل المساواة بينها وبين الرجل والتخلص من سيادته ووصايته عليها.

(5) - قال تعالى في الآية 20 من سورة الأعراف: "فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ".

القضبان وإعادة إحداهن إليه بالقوة (جرا من الشعر) بعدما حاولت الفرار منه؛ في إحالة واضحة لسلبهن حريتهن (القضبان/ السجن) واستعبادهن والتحكم فيهن باسم الدين مما يؤدي بهن إلى الاستنجاد بالأم/ الطبيعة لمساعدتهن لكن دون جدوى.

يستمر الفيلم في التأثر بالتوراة وسفر التكوين بالتحديد؛ ففي العقيدة اليهودية والمسيحية حرم الله على آدم وحواء أكل الفاكهة من الشجرة المحرمة، لكن الحية وسوست لحواء أن تأكل من الشجرة وحواء وسوست لآدم أن يأكل معها، وعندما لام الله آدم على ما فعله ألقى كل الذنب على حواء: " فقال آدم إنها المرأة التي جعلتها معي هي من أعطتني من الشجرة فأكلت" (سفر التكوين 12 : 3) فقال الإله للمرأة: "تكثيرا أكثر أتعاب حملك، بالوجع تلدين أولادا وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك وقال لآدم لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلا لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. (سفر التكوين 3: 16-17).

إن مبعث الازدراء والكراهية والتحقير والتعنيف الذي تتعرض له النساء على يد الرجال في الفيلم، مصدره الدين والإله الذي عاقب حواء التي أغوت آدم، تبقى حواء تدفع ثمن الخطيئة وكل النساء بعدها، ففي سفر التكوين كما ذكرنا أعلاه تعاقب المرأة بألم الحمل والولادة[6] مدى الحياة، وجاء أيضا في الجزء الذي عرضناه من التوراة "وهو يسود عليك" بمعنى الرجل يتسيد المرأة فهو سيدها وهي العبد الخاضع له بالقوة كما يظهر مشهد السجن، في انعكاس واضح لانعدام الحرية، وفي تدليل واضح على أن الأديان بهذا الطرح هي من سلبت حرية المرأة وكرست عبوديتها للرجل وتبعيتها له، وما تم عرضه مما جاء في التوراة والإنجيل حول المرأة سوى عينة بسيطة، فالمرأة نجسة بسبب الطمث وممنوع أن تتكلم ولا يجوز لها أن تُعلّم وأنها تجلب العار وهو الطرح الذي انتقل إلى القبائل العربية القديمة التي كانت تقوم بوأد البنات.

[6] - يركز المخرج على إظهار آلام مخاض وولادة الأم للمسيح في أكثر من مشهد.

يؤكد فيلم Mother مرة أخرى على دور الأديان في ترسيخ فكرة تواطؤ المرأة مع الشيطان وامتهانها الغواية وتسببها في الخطيئة الكبرى، هذه الفكرة التي تظهر أيضا في العهد الجديد الإنجيل الذي يورد أن المسيح قد هدر دمه لتكفير هذه الخطيئة وتخليص البشرية منها، ليعود كاتب ومخرج الفيلم لتصوير العنف الذي تتعرض له المرأة بسبب هذا الطرح الديني فبعد مقتل ابن الطبيعة/ الأم الذي يرمز للمسيح في الفيلم تتعرض الأم لهجوم شرس من الناس بضربها وتعنيفها وتمزيق ثيابها ووصفها بأقبح العبارات في المشهد الأربعون كالآتي: "موتي أيتها الساقطة، العاهرة، القذرة، الداعرة الخنزيرة، أقتلوا الخنزيرة".

يختار كاتب ومخرج الفيلم Darren Aronovsky هذا التوجه النسوي في فيلمه لإبطال حجة الأديان وإظهار احتوائها على تمييز جنسي بين الذكور والإناث، وكيف تعاني هذه الأخيرة من الاضطهاد باسم الدين، حيث يعطي حيزا كبير في خطابه اللغوي والبصري للعنف الذي تتعرض له المرأة كرد فعل تاريخي واجتماعي ونفسي إزاءها بسبب الخطيئة الكبرى التي اقترفتها حسبما ورد في العهدين القديم والجديد (التوراة والإنجيل)، إذ ذاك تتضح عقدة نفسية تاريخية يهودية أخرى انتشرت في العالم أين تقترن المرأة بالشر وبالتالي الاستثمار في كراهيتها وكل أشكال العنف والتمييز المترتبة عن هذا الكره، لتشتغل هذه الآلية النفسية بشكل عكسي ضد الأديان ويصبح تحرر المرأة منها الهدف الرئيس للأيديولوجيا النسوية التي يؤكدها الفيلم ويشتغل ضمن سياقها ليصبح بذلك فيلم Mother فيلماً نِسوياً بامتياز.

نقد النزعة الذكورية:

في مقابل المرجعية النسوية وإظهار إضعاف الأديان للأنثى ووضعها تحت سيطرة وسيادة الرجل، يسعى فيلم Mother إلى إبراز النزعة الذكورية للإله فمنذ البدء يظهر الإله/ الأب إعجابا وتقديرا خاصا لآدم حيث يقول للأم/ الطبيعة في المشهد الثامن: "قصصه تعجبني، أعجبني عقل الرجل، ملهم جدا التحدث إلى أحد يقدر العمل فعلا"، كما يقول لها في المشهد السابع عشر: "إنه رجل صاحب كبرياء يعجبني هذا"، كما يحرص كاتب ومخرج العمل

Darren Aronovskyعلى إظهار انحياز الإله/ الأب لآدم من خلال قضاء أغلب الوقت في الحديث إليه واصطحابه معه خارج البيت للتنزه، تؤكد حواء ذلك من خلال قولها للأم/ الطبيعة في المشهد الحادي عشر: "لقد توطدت علاقتهما، ألا تظنين هذا؟".

يتجه الفيلم بشكل متزايد إلى إبراز تراتبية الذكر والأنثى دينياً، من حيث الأسبقية الوجودية لآدم على حواء وخلق هذه الأخيرة من ضلعه، في الليلة التي تسبق ظهور حواء في الفيلم، تتم المحاكاة الرمزية لعملية خلقها من ضلع آدم حيث تستفيق الأم على صوت صراخ وتألم بحمام البيت لتتجه نحوه فترى الأب/الإله يقف إلى جانب آدم الذي كان يتقيأ وعلامات جرح واضحة على ظهره (ناحية الأضلاع) ليهم الأب/ الإله بتغطية الجرح بيده حتى لا تراه الأم ثم يطردها قائلا: "امنحيه بعض الخصوصية."

إن ما يلفت الانتباه في هذا الحدث؛ ليس عملية خلق حواء من ضلع آدم التي تتفق عليها جميع الأديان السماوية، بل ما صوره الفيلم حيث تكتشف الأم أثناء دخولها للحمام صباحا وجود عضلة قلب في المرحاض وبمجرد ما تقترب منها للتأكد تختفي، في إشارة إلى أن عملية خلق حواء من ضلع آدم تبعتها عملية انتزاع قلبه في إشارة واضحة إلى الطابع القاسي للرجل وتخليصه من العاطفة (القلب) وهو ما يريد كاتب ومخرج العمل إبرازه وجعل القسوة والقوة صفة مشتركة بين الذكر والإله في امتداد متواصل للنزعة الذكورية للإله في الفيلم.

يستمر الفيلم في عرض النزعة الذكورية للإله/الأب، في إشارة إلى اختيار جميع الأنبياء من الذكور لتبليغ الرسالة الإلهية، يرمز كاتب ومخرج العمل للأنبياء بامرأة التي تؤدي دور ناشرة كتب الإله/الأب/ الشاعر، يتم اختيار المرأة كحجة مناقضة وكإحالة عكسية للنزعة الذكورية في اختيار الأنبياء وهو ما يدعم المرجعية النسوية للفيلم كما سبق وأن تناولناها سابقاً.

لا يبدو أن كاتب ومخرج العمل Darren Aronovsky قد اكتفى بإبراز انحياز الإله/ الأب لآدم /الذكر بل يسعى بشكل متواصل إلى تأكيد ذكورية الإله، بدءً من اختيار تجسيده في صورة الذكر، تتسحب الذكورية

على الأبوية فالإله المسيحي أب للإله عيسى (حسب الإنجيل)، وبذلك تصبح الأبوة قرينا للذكورة فيصبح الإله أباً ويصبح الأب رباً ومازال سائدا لحد الآن الاصطلاح على أب العائلة برب الأسرة/البيت، إذ ذاك يشترك الإله الأب والأب الرب في كثير من الصفات كالتحكم والتسيد والحزم والسيطرة والسلطة فما يفرضه رب الأسرة من أحكام وقواعد وأوامر ونواهي على أفراد عائلته تتشابه (شكلا وليس مضمونا) فيما يمليه الإله الأب على الناس.

خاتمة:

تنطلقُ الأطروحة الخطابية في السينما الأمريكية من خلال فيلمي Mother من الإله وتنتهي إليه لإلغائه وإسقاط الألوهية عنه عن طريق تشويه صورته وجعله مصدراً للشر؛ حيث يسعى الفيلم إلى تشويه صورة الإله؛ عبر تبني نموذج إدراكي يصوره شيطاناً شريراً ووحشا قاسيا بلا رحمة، عبر وسمه بصفات وحالات إنسانية كالتوتر والقلق، الاندهاش، التعب، الإعجاب، الحاجة إلى الحب رفض الوحدة، يصور الإله أيضا عاجزاً عن مساعدة الناس وانتشالهم من الفقر، كما يوصف أيضا بأنه مجنون وقاتل وذو نزعة ذكورية يبجل فيها الذكور على الإناث.

يسعى فيلم Mother لإثبات هذه الأطروحة من خلال بنية حجاجية متعددة الإستمالات بين العقلية والعاطفية والتخويف؛ ينطلق مسار البرهنة من حجة جود حياة سابقة على الأرض؛ كدليل على فشل الإله في بعث السلام والتعايش على الأرض، كما يستند الفيلم على حجج أخرى على غرار دور الأديان في الصراع البشري والحروب المستمرة على الأرض، مسألة العدالة الإلهية فيما يتعلق بالفقر من خلال إظهار الإله عاجز عن مساعدة الفقراء واستمرار الهوة بينهم وبين الأغنياء، في ذات السياق تطرح حجة عدم الاكتفاء؛ حيثُ تشكل ثنائية الألم والمعاناة صخرة تفكيك صورة الإله والدين في الفيلم وهو ما اصطلحنا عليه بصخرة الإلحاد الجديد.

تُعدُّ قضايا: الألم، المعرفة، الخير والشر والجمال؛ من أبرز المسائل التي يطرحها الخطاب الإلحادي في السينما الأمريكية من خلال فيلم Mother.

يُوعِزُ الفيلم الأمريكي Mother معاناة البشر إلى الإله؛ الذي يصبح معذِّبا للإنسان ومسبِّبا مباشرا لكل آلامه من خلال الدين؛ يضعُ الفيلم نموذجاً إدراكيا تتجسّدُ من خلاله المعاناة الإنسانية ضمن عدة مستويات: الألم النفسي الناجم عن حب الإنسان للإله وتعلقه به مقابل استمراره في تعذيبه المعاناة الناجمة عن الصراعات والحروب التي تسببها الاختلافات والانقسامات الدينية، معاناة الفقر، معاناة الموت وأخيرا معاناة نهاية العالم/ القيامة، يربطُ الفيلم هذه المعاناة البشرية بسببين رئيسين أولهما طرد آدم وحواء من الجنة وتوقف الإله عن محبتهما بسبب الخطيئة التي ارتكباها وثانيهما حادثة قتل قابيل لهابيل التي يُنمذِجُها الفيلم كأصلٍ لكل النزعات والدماء التي تراق على الأرض.

يتعاطى الفيلم الأمريكي Mother مع الجمال كمسألة وجودية في علاقته بالإله الذي يتحول إعجابه المتزايد به إلى مصدر إلهام لتأليف نصوصه/ الأديان التي تتسبب في دمار ونهاية الطبيعة والبشرية.

يُجسّدُ الفيلم الأمريكي Mother الأيديولوجيا الإلحادية بأسلوب مُبطن إيحائي، تُمثَّل/ تُبرر هذه الأيديولوجيا عبر آليتين للنمذجة؛ أولُها شيطنة الإله وربطه بالشر والأذى وانعكاساتهما على معاناة وآلام الإنسان وثانيها توصيف الإله بالنزعة الذكورية والتمييز الجنسي الذي ينعكس على الأديان التي تُعلي من شأن الذكر وتصغّر/تحط من شأن الأنثى عبر إقرانها بالخطيئة الكبرى والتأكيد على التداعيات التاريخية والاجتماعية والثقافية لهذا المعتقد التي تنعكس في تحقير وازدراء المرأة وخضوعها وتبعيتها الكاملة للسلطة الذكورية.

تعيد الأيديولوجيا الإلحادية في الفيلم الأمريكي Mother إنتاج الصراع الاجتماعي وتجسيد الوعي الطبقي والتنازع الناجم عنه؛ حيث يرُد الفيلم ديمومة الصراع البشري إلى الأديان وانعدام العدالة الإلهية.

تُشكل التوراة إطاراً مرجعيا نصِّياً عاماً للخطاب الإلحادي في الفيلم الأمريكي mother أين يتطابقُ تصوير الإله مع المعتقد اليهودي القائل أن الإله غير معصوم بل يخطئ ويثور ويقع في الندم وهو قاس، متعصب مدمر لشعبه.

من خلال هذه النتائج؛ يتبين عمق وتشابك الخطاب الإلحادي في السينما الأمريكية من خلال فيلم Mother، وسعة/ تعدد المفاهيم والقضايا التي يتناولها، تتجلى أيضا قوة الأيديولوجيا في تحكمها في النماذج الإدراكية مهما بلغت درجة تعقيدها، وتوجيهها الدقيق وفقا لما يخدم تحيزاتها الزائفة وإعادة إنتاج الوضع/ الإلحاد والحفاظ عليه، تثبت هذه الدراسة أيضا التشويه والتبرير المستمر الذي تفتعله الأيديولوجيا فضلا عن تدميرها للمعرفة وردمها لمفاتيح التاريخ/ الماضي تحت رُكام المُزيف والمُغيب والمُحرف والمَسكوت عنهُ.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

العهد القديم (التوراة)، سفر التكوين.

أولا– توثيق الكتب

ابن منظور، أبو الفضل. (1996). لسان العرب، بيروت: دار صادر للطباعة.

بدوي، عبد الرحمن. (1984). موسوعة الفلسفة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

الجبار، عبد الحميد ثامر. (2016). نظريات وأساليب الفيلم السينمائي، الأردن: دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع.

دادلي، أندرو. ترجمة الرشيدي؛ فؤاد جرجس. (1987). نظريات الفيلم الكبرى، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

شومان، محمد. (2007). تحليل الخطاب الإعلامي أطر نظرية ونماذج تطبيقية، مصر: الدار المصرية اللبنانية.

صليبا، جميل. (1982). المعجم الفلسفي، بيروت: دار الكتاب اللبناني.

غضابنة، الطاوس. (2014). الخطاب الديني عند محمد أركون من خلال مشروعه الفكري، قسنطينة: نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع.

هوندرتش، تد. ترجمة الحصادي، نجيب. (2005). دليل أكسفورد للفلسفة، طرابلس: منشورات المكتب الوطني للبحث والتطوير.

ثانيا – الرسائل والدوريات

بن جيلاني، محمد عدلان. (2010). سينمائية الخطاب الفيلمي مقاربة سيميو- شعرية فيلم تيتانيك انموذجا، جامعة وهران: رسالة دكتوراه غير منشورة.

ثالثا– توثيق المواقع الالكترونية

منجد، محمد صالح، كيف عرفت الملائكة أن البشر سيفسدون في الأرض، https://bit.ly/31N3IRC، تاريخ التصفح 2019/04/15.

إيرادات فيلم Mother على موقع بوكس أوفيس، https://bit.ly/2JrqtUL، تاريخ التصفح 2019/04/10.

التعريف اللغوي للسينما، موقع قاموس المعاني، https://bit.ly/32OKCvv، تاريخ التصفح 2018/02/15.

فيلم Motherعلى موقع قاعدة بيانات الأفلام على الإنترنت، https://imdb.to/32SjvQa، تاريخ التصفح 2019/04/11.

رابعا– المراجع باللغة الأجنبية

Jorgensen, Marianne & Phillips, Louis. (2008). Discourse Analysis as theory and method, London: Sage Publications.

Van Dijk, Teun. (2004). Idiology and Discourse a multidisciplinary introsuction, Rome: carocci.